

انتقام القوة





عن المؤلف



موزس نعيم

موزس نعيم كاتب فنزويلي من مواليد 1952، يعمل باحثاً في مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي. شغل منصب رئيس تحرير مجلة «فورين بوليسي»، ووزير التجارة الفنزويلية والمدير التنفيذي للبنك الدولي. يكتب باستمرار في الصحافة. وله أكثر من 15 كتاباً.

شهد مطلع القرن الحادي والعشرين تحولات مقلقة وزعزعة في الاستقرار السياسي، تبعها ظهور اتجاهات شعبية ويمينية متطرفة على الساحات السياسية في أعرق الديمقراطيات في العالم، ما ساهم في ضرب قيمها الراسخة وإعادة النظر فيها وفي مفهوم الحرية التي بات مستقبلها على المحك. ويسعى المؤلف موزس نعيم، إلى تحديد الأشكال التي يسعى عبرها القادة الأوتوقراطيون لتصميم سياسات تخدم أجندتهم وسلطتهم على حساب إضعاف القيم الديمقراطية. يقدم المؤلف في هذا العمل شخصيات إشكالية وقصصاً عن الاستيلاء على السلطة، وأمثلة حية عن الحيل والتكتيكات التي يستخدمها الأوتوقراطيون لمواجهة القوى التي تقوّض قوتهم. ويربط المؤلف بين الأحداث العالمية والتكتيكات السياسية التي تظهر تحولاً عميقاً، وغالباً ما يكون خفياً في السلطة والسياسة في جميع أنحاء العالم. ويكشف نعيم كيف تظهر الاستراتيجيات نفسها التي تساهم في توطيد السلطة في أماكن ذات ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية شديدة الاختلاف، ويقدم رؤى حول ما يمكن القيام به لضمان سيادة الحرية والديمقراطية.

ويرى أن نتائج هذه المعارك على السلطة ستحدّد ما إذا كان مستقبلنا يتجه ليكون أكثر استبداداً أو أكثر ديمقراطية. ويعالج نعيم الأسئلة المطروحة في صميم الموضوع: لماذا تتركز السلطة في بعض الأماكن بينما في أماكن أخرى تكون مفتتة ومهينة؟ والسؤال الكبير: ما هو مستقبل الحرية؟

عدو جديد

يقول نعيم: «تواجه المجتمعات الحرة في جميع أنحاء العالم عدواً جديداً عنيداً. هذا العدو ليس له جيشاً ولا قوة بحرية. إنه يأتي من أي بلد يمكننا الإشارة إليه على الخريطة. فهو موجود في كل مكان وليس في أي مكان. وبدلاً من تهديد المجتمعات بالدمار من الخارج، كما فعل النازيون والسوفييت ذات مرة، فإن هذا العدو يهددها من الداخل. خطر موجود في كل مكان، يصعب تمييزه وتحديده. كلنا نشعر به، لكننا نكافح من أجل تسميته. نصرف سيولاً من الحبر لوصف مكوناته وخصائصه، لكنه يظل بعيد المنال. مهمتنا الأولى، إذن، هي تسميته. عندها فقط يمكننا استيعابه ومحاربه وهزيمته. ما هو هذا العدو الجديد الذي يهدد حريتنا وازدهارنا وحتى بقاءنا كمجتمعات ديمقراطية؟ الجواب: «هو السلطة بشكل خبيث جديد».

ويضيف: «لقد شهد كل عصر شكلاً أو أكثر من أشكال الخبث السياسي. ما نراه اليوم هو البديل الانتقامي الذي يحاكي الديمقراطية لكنه يقوضها في الوقت ذاته، ويحتقر كل الحدود. يبدو الأمر كما لو أن السلطة السياسية قد التفت على كل طريقة ابتكرتها المجتمعات الحرة على مر القرون لتدجينها وتأمّرت للرد عليها. هذا هو السبب في أنني أعتبرها «انتقاماً».

في هذا الكتاب، يلقي المؤلف نظرة على صعود هذا الشكل الخبيث الجديد من السلطة السياسية في العالم، مشيراً إلى الطريقة التي تطورت بها في جميع أنحاء العالم. ويوثق كيف تتآكل خلصة في أساسيات المجتمع الحر، ويظهر كيف نشأت من رماد شكل قديم من أشكال القوة، دمرته القوى التي أدت إلى نهايته. ويزعم أنه أينما تطور، سواء في بوليفيا أو نورث كارولينا، في بريطانيا أو الفلبين، فإنه يعتمد على مجموعة من الاستراتيجيات الأساسية لإضعاف أسس الديمقراطية وتعزيز هيمنتها الخبيثة. كما يرسم طريقاً للرد على المقاومة لحماية الديمقراطية، وفي كثير من الحالات، لإنقاذها.

يقول المؤلف: «إن الصدام بين من يملكون القوة ومن يفتقرون إليها هو، بالطبع، ركيزة دائمة في التجربة الإنسانية. بالنسبة للجزء الأكبر من تاريخ البشرية، قام أولئك الذين يمتلكون السلطة باستغلالها لمصلحتهم الخاصة. كانت أدوات عنف القوة، والمال، والتكنولوجيا، والأيدولوجيا، والإقناع الأخلاقي، والتجسس، والدعاية، على سبيل المثال لا الحصر، مجالاً للطوائف الوراثية، بعيداً عن متناول معظم الناس. ومع ذلك، بدءاً من الثورتين الأمريكية والفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، ساد تحول زلزالي في علاقات القوة، ما جعل السلطة قابلة للنزاع وفرضت قيوداً جديدة على أولئك الذين مارسوها. كان هذا الشكل من القوة، محدود النطاق، وخاضعاً للمساءلة أمام الناس، وقائماً على روح المنافسة المشروعة، في قلب التوسع الكبير في الازدهار والأمن الذي شهده العالم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. ولكن في مطلع القرن الحادي والعشرين، بدأت التحولات المقلقة بزعة الاستقرار الحاصل ما بعد الحرب. ما هو على المحك ليس فقط ما إذا كانت الديمقراطية ستزدهر في القرن الحادي والعشرين، ولكن ما إذا كانت ستستمر حتى كنظام حكم مهيم. إن بقاء الحرية غير مضمون. فهل تستطيع الديمقراطيات أن تنجو من هجمات المستبدين الطامحين المصممين على تحطيم الضوابط والتوازنات التي تحد من سلطتهم؟ كيف؟ لماذا تتركز القوة في بعض الأماكن بينما «تكون في أماكن أخرى هشة؟ والسؤال الكبير: ما هو مستقبل الحرية؟»

يرى الكاتب أنه «نادراً ما يتم التنازل عن السلطة طوعية. فأولئك الذين يمتلكونها يحاولون بطبيعة الحال احتواء ومواجهة محاولات خصومهم لإضعافهم أو استبدالهم. وغالباً ما يكون القادمون الجدد الذين يهاجمون شاغلي الوظائف مبتكرين لا يستخدمون أدوات جديدة فحسب، بل يتبعون أيضاً قواعد لعب مختلفة تماماً. لقد غيرت ابتكاراتهم السياسية بعمق الطريقة التي يتم بها غزو السلطة والاحتفاظ بها في القرن الحادي والعشرين

ويحدد هذا الكتاب ويعاين هذه الابتكارات، ويظهر إمكاناتها ومنطقها الداخلي وتناقضاتها، ثم يحدد المعارك الرئيسية التي سيحتاج الديمقراطيون للفوز بها لمنعهم من تدمير الحرية في عصرنا

ويؤكد المؤلف أنه «لن يكون الشكل العرضي المحدود للسلطة كافياً لإرضاء المستبدين الطموحين الذين تعلموا كيفية الاستفادة من اتجاهات مثل الهجرة، وانعدام الأمن الاقتصادي للطبقة الوسطى، وسياسات الهوية، والمخاوف التي تثيرها العولمة، وقوة وسائل التواصل الاجتماعي، وظهور الذكاء الاصطناعي. وفي جميع أنواع المناطق الجغرافية وتحت جميع أنواع الظروف، أظهروا أنهم يريدون القوة من دون قيود، ويريدونها للاحتفاظ بها. ويواجه هؤلاء المستبدون الطموحون مجموعة جديدة من الخيارات، ولديهم مجموعات جديدة من الأدوات يمكنهم استخدامها للمطالبة بسلطة غير محدودة. والعديد من هذه الأدوات لم تكن موجودة قبل بضع سنوات فقط. البعض الآخر قديم قدم الزمن ولكنهم يتحدون بطرق جديدة مع التقنيات الناشئة والاتجاهات الاجتماعية الجديدة ليصبحوا أقوى بكثير مما «كانت عليه من قبل

ويلق الكاتب: «لهذا السبب، شهدنا، في السنوات الأخيرة، نجاح سلالة جديدة من الباحثين عن السلطة: قادة غير تقليديين شهدوا انحلال السلطة التقليدية، وأدركوا أن نهجاً جديداً جذرياً يمكن أن يفتح فرصاً غير مستغلة حتى الآن. لقد نشأت في جميع أنحاء العالم، من أغنى البلدان إلى أفقرها، ومن أكثرها تطوراً مؤسسياً إلى أكثرها تخلفاً. ويدور في أذهاننا هنا دونالد ترامب، بالطبع، وكذلك الرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز، والهنغاري فيكتور أوربان، والفلبيني رودريغو دوتيرتي، والبرازيلي جاير بولسونارو، والسلفادوري نجيب بوكيلي، وغيرهم. ويشرح هذا الكتاب نهجهم لأنه لا يمكن للمرء أن يهزم ما لا يستطيع فهمه. لقد ابتكر هؤلاء الأوتوقراطيون الجدد تقنيات جديدة لاكتساب قوة غير محدودة ثم الاحتفاظ بها لأطول فترة ممكنة. نجاحهم يشجع الآخرين على محاولة تقليدهم في جميع أنحاء العالم. لقد حققوا العديد من النجاحات إلى جانب بعض الإخفاقات البارزة. يتكيف هؤلاء القادة مع المشهد الجديد، ويبتكرون تكتيكات جديدة ويعيدون هندسة القديمة لتعزيز قدرتهم على فرض إرادتهم على الآخرين. وعلى الرغم من الاختلافات الوطنية والثقافية والمؤسسية والأيدولوجية الهائلة بين البلدان التي نشأت فيها، تبدو كتيباتها متشابهة بشكل غريب. ولا يمكن أن يكون جاير بولسونارو، رئيس البرازيل، والمكسيك أندريس مانويل لوبيز أوبرادور، على سبيل المثال، أكثر اختلافاً على المستوى الأيدولوجي، ولا أكثر تشابهاً في أسلوب قيادتهما. ولا يمكن أن تكون السلفادور الصغيرة والفقيرة في أمريكا الوسطى والقوة العظمى الهائلة المتطورة مثل الولايات المتحدة أكثر اختلافاً عن البلدان، ومع ذلك فقد حكم نجيب بوكيلي ودونالد ترامب وفق قواعد متشابهة بشكل مخيف. ما هي هذه الصيغة؟ ما هي مكوناتها؟ وكيف تعمل في العالم الحقيقي؟ هذه هي الأسئلة الموجودة في قلب هذا الكتاب. يلخص المؤلف الصيغة في ثلاث كلمات: الشعبوية، والاستقطاب، وما بعد الحقيقة.

اكتساب السلطة

الشعبوية والاستقطاب قد تكون الشعبوية هي أكثر العناصر التي نوقشت بإصرار من بين العناصر الأساسية الثلاثة، وأكثرها تعرضاً لسوء الفهم، كما يرى المؤلف، إذ يشير إلى أنه بدلاً من ذلك، من الأفضل فهم الشعبوية على أنها استراتيجية لاكتساب السلطة وممارستها. قوتها متعددة الاستخدامات: يمكن أن تعمل الشعبوية كاستراتيجية في مجموعة متنوعة جداً من السياقات، وتكون متوافقة مع أي أيديولوجية حاكمة تقريباً، أو من دون أيديولوجية على الإطلاق. ويصور الشعبويون عالماً سياسياً منقسماً بدقة، إلى قسمين: النخبة الفاسدة والجشعة، مقابل النبيلة والنقية، لكنها الخائنة والمظلومة (الشعب). ويصور القادة الشعبويون أنفسهم على أنهم يجسدون إرادة الشعب، ويدافعون عن قضيتهم ضد النخبة الفاسدة. ويعتبر الشعبويون متشائمين بشكل ملحوظ بشأن الوضع الحالي الذي يجدون أنفسهم فيه. العالم من حولهم فاسد وفاشل، ويجدون أنه يجب تنظيف القديم لتمكين بداية جديدة، ومن ممارساتهم التالي: تجريم الخصوم السياسيين. المعارضون السياسيون ليسوا مواطنين بآراء مختلفة ولكنهم منتهكون للقانون الذين يقضون فترة طويلة في السجن. ويميل الشعبويون إلى نقل المواجهة مع منافسيهم السياسيين من الساحة الانتخابية إلى المحاكم، (حيث من المرجح أن يكون لديهم قضاة ودودون جاهزون لسجن أعضاء المعارضة المزعجين (أو الأكثر شعبية

استخدام التهديدات الخارجية. هذه ممارسة قديمة: يدعي الزعيم الشعبوي أن الأمة مهددة من قبل عدو أجنبي. تدعو حالة الطوارئ الوطنية هذه إلى الوحدة ولا تتطلب أقل من دعم الشعب غير المشروط للحكومة. في ظل هذه الظروف، تعتبر معارضة الحكومة بمثابة خيانة. ويمكن أن يكون الأعداء الأجانب دولاً، أو مهاجرين يسرقون الوظائف، أو شركات أجنبية مسيئة تستغل الوطن

العسكرة وشبه العسكرة. يتمتع الشعبويون بتاريخ طويل من تمجيد الصور العسكرية والتوجه إلى الجماعات العسكرية

وشبه العسكرية لترهيب معارضتهم.

تداعي الحدود الوطنية. يتم تصوير الحدود الوطنية على أنها «منفتحة للغاية» و«سهلة الاختراق»، وبالتالي فهي بحاجة «ماسة إلى التعزيز من أجل وقف غزو «المهاجرين الذين يسرقون الوظائف

مهاجمة وسائل الإعلام. الإعلام (غير الودي) من قائمة الأعداء مثل الخبراء. لديهم أيضاً بيانات، وغالباً ما يكشفون عن الانقسام الحكومي وعدم الكفاءة. كما أنهم عرضة لفضح الأعمال التي تفضل الحكومة أن تبقىها سرية

تقويض الضوابط والتوازنات. أي مؤسسات تعمل كحواجز أو ضوابط أمام إرادة الشعبوية غير المقيدة تتعرض للريبة وتعرض أحياناً للهجوم والتقويض علناً

ويضيف المؤلف: «بمجرد إنشاء إطار شعبي، يتم إعداد المسرح للاستراتيجية الثانية المستخدمة لاكتساب القوة والاحتفاظ بها: الاستقطاب. يقضي الاستقطاب على إمكانية وجود أرضية مشتركة، ويدفع كل فرد ومنظمة إلى الانحياز. وفي عصرنا، يعمل الاستقطاب من خلال ديناميكيات القاعدة الجماهيرية: نمط من التماهي مع الجذور في ثقافة المشاهير في صناعة الموسيقى والرياضة، حيث يتعرف المتابعون بشكل مكثف إلى نجومهم المفضلين. مصدر آخر مهم للاستقطاب هو الهوية. وكما وصفها فرانسيس فوكوياما بجدارة، «تركز [الهوية] على مطلب الناس الطبيعي للاعتراف بكرامتهم وتوفير لغة للتعبير عن الاستياء الذي ينشأ عندما لا يكون هذا الاعتراف وشيكاً». مرة أخرى، استخدم السياسيون الهوية دائماً كأسفينة لتنشيط وتعبئة الناس وتجنيد الأتباع. وفي السنوات الأخيرة، تم تسهيل هذا التجنيد وتضخيمه من خلال انفجار الاستقطاب السياسي، في بيئة سياسية مستقطبة، لا تترك القاعدة الجماهيرية والهوية مجالاً للدعم التحوطي أو بناء الجسور بين الأحزاب أو الهدنات المؤقتة بين الجانبين. ومع تقدم الاستقطاب، يتم التعامل مع الخصوم السياسيين كأعداء. ولم تعد الأطراف المتصارعة تسعى إلى استيعاب بعضها بعضاً في السعي إلى الحد الأدنى من ترتيبات الحكم القابلة للتطبيق. وبدلاً من ذلك، فإنهم ينكرون الشرعية الأساسية لحق الطرف الآخر حتى في التنافس «على السلطة، مستغنين عن القاعدة الديمقراطية النموذجية التي ترى التناوب في المنصب كقاعدة

ويوضح المؤلف أن الشعبوية والاستقطاب من الغرائز القديمة في المجال السياسي، لكن أكثر جوانب انتقام السلطة معاصرة بشكل غريب في رأيه هو المكون الأخير: ما بعد الحقيقة. يقول: «هنا، نواجه ظاهرة جديدة إلى حد كبير، ليس لأن السياسيين لم يعتادوا الكذب أبداً، وهو ما فعلوه بالتأكيد، ولكن لأن مفهوم ما بعد الحقيقة أعمق بكثير من مجرد الكذب. وفي نهجهم الحالي لما بعد الحقيقة، يذهب القادة إلى أبعد من التضليل وينكرون وجود واقع مستقل يمكن التحقق منه. ولا يتعلق ما بعد الحقيقة أساساً بقبول الأكاذيب كحقائق، بل يتعلق بتعكير المياه لدرجة يصعب فيها تمييز الفرق بين الحقيقة والباطل في المقام الأول. واستخدم السيناريست والروائي ستيف تيش مصطلح «ما بعد الحقيقة» لأول مرة في عام 1992. ويحاول هذا المفهوم تصوير أنه «اختفاء المعايير الموضوعية المشتركة للحقيقة»، وما هو «انزلاق غير مباشر بين الحقائق أو الحقائق البديلة، والمعرفة، والرأي، والاعتقاد، والحقيقة

يحتوي الكتاب على الكثير من التفاصيل على امتداد 11 فصلاً، ولا يمكن أن يغني هذا التلخيص عن قراءته في كل الأحوال، وهو صادر عن دار «سنت مارتينس برس» في فبراير 2022 باللغة الإنجليزية ضمن 320 صفحة

ترجمة وعرض:

نضال إبراهيم

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024.